جولة فى الأدب العربى

الأستاذ حمدى الحسينى

أدب الجاهلية أدب شخصى وجدانى يمثل غرائز الفرد ومشاعره ووجدانه . ولا يعتد هذا التمثيل لأكثر من القبيلة التى ينتسب إليها الشاعر ويرتبط بها ارتباطاً وثيقاً بحكم النظام القبلى القائم على التعاون للدفاع عن النفس وحفظ الحياة .

والأدب الجاهلى يتميز عن الأدب العربى فى العصور الأخرى التى تلته بالصدق والصراحة وهما الفضيلتان اللتان كان يتحلى بهما العربى فى ذلك العهد ، فإذا وصف الشاعر شجاعته أو شجاعة فارس من قبيلته كان صادقاً لأنه إنما يصف شعوره الخاص بشجاعته أو ما وقع تحت حسه وإدراكه من شجاعة ممدوحة . وإذا وصف نفسه أو قبيلته بالكرم فهو صادق كل الصدق فى الوصف لأنه يصف حقيقة واقعة لا يعتريها شئ من التدليس أو الادعاء الكاذب . وإذا وصف نوعا من الجمال فإنما يصف ما يحس به من شعوره بهذا الجمال ، وإذا باح بعواطفه فى حبه فلا يخالجنا شك فى أنه يحب حقا بالقدر الذى وصفه وباح به

وإنك لترى فى الأدب الجاهلى هذا النزوع القوى للمقاتلة وهى الغريزة التى أثارها فى نفس العربى النظام القبلى وما يقتضيه هذا النظام من المزاحمة على اللقمة والجرعة وما إليهما من أهداف الرغبات الغريزية التى لا غنى عنها فى هذه الحياة . وقد كانت هذه الغريزة وما يتفرع عنها من الانفعالات والعواطف والنوازع

والذى أراه سليما أن الفنان الحق تعبير صاف ، خالص من الشوائب ، عن أعمق ، وأصرح ، وأصدق المشاعر الإنسانية

هو الشخص الذى إذا أتيح لسائر أعضاء المجتمع الذى يعيش فيه منظار عادى ، كان هو وحده الذى يملك « الميكرسكوب » . . وما أصدق وأدق المثل الإنجليزى القديم الذى يقول: A Poet is born and not made

أحمد مصطفى حافظ

المنبع القوى للفضائل والأخلاق العربية التى مثلها الأدب فى ذلك العهد

وقد ظل هذا الأدب ممثلا للنفسية العربية الخالصة ومرآة تنعكس عليها هذه النفسية بقوتها وحرارتها وبساطتها فتبدو فضائلها ومساوئها ظاهرة واضحة ، فترى الصدق والإخلاص والصراحة والعفة والشجاعة والمروءة والكرم ، وترى الأنانية وسرعة الغضب وحدة المزاج والقسوة والانتقام

ظل العرب فى جاهليتهم كما ذكرنا ، وظل أدبهم كذلك حتى أشرق عليهم وعلى العالم نور الإسلام القوى فانبهرت عيونهم من قوة النور ، وازعجت نفوسهم من شدة المفاجأة ، فأغمضوا عيونهم فى أول الأمر لأنها أضعف من أن تحتمل هذا النور القوى ، وانكمشوا عن الإسلام لأنه فوق ما تحتمل النفوس البسيطة الوادعة على رمال الصحراء ، وفوق ما تستوعبه عقولهم الساذجة المحدودة بحدود تلك الحياة الضيقة ، ولكن نور الإسلام قد غمرهم غمراً ونفذ إلى عيونهم ونفوسهم وعقولهم ، وحولهم فى بوتقته العظيمة المقدسة إلى مؤمنين بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فاطمأنت نفوسهم بالإيمان وامتلأت بالفضائل الإسلامية ، فدفعهم الإيمان من جزيرتهم القاحلة الضيقة إلى العالم الواسع الزاهر هداة مبشرين وقادة فاتحين فتحولت من قول الشعر إلى تلاوة القرآن ، ومن الفرقة الجاهلية إلى الوحدة الإسلامية ، ومن المفاخرة بالأحساب والأنساب إلى المفاخرة بالسبق فى دخول الإسلام . وما زال العرب كذلك حتى بردت حرارة الإيمان فى نفوسهم فبدت ميولهم الكامنة ورغباتهم المستورة تطل من عقولهم الباطنة حتى أصبحت الخلافة الإسلامية ملكا عضوضاً ، وانقسموا على أنفسهم ورجعوا إلى عصبياتهم النائمة فبعثوها بمفاخراتهم بالأحساب والأنساب وبالسبق للإسلام أيضاً ليتخذوا من هذا وسائل لتمهيد الملك وتعزيز السلطان ، فنشأ من هذا أدب سياسى ولكنه حزبى ، فهناك على بن أبى طالب وهناك معاوية بن أبى سفيان ، يعزز كل منهما نظريته بالسيف والقلم واللسان ، فكان النضال العنيف الذى أنتج هذا الأدب

السياسى الحزبى، وأنتج هؤلاء الخوارج الذين تركوا هم الآخرون ظلهم واضحا على صفحة الأدب العربى ، كما تركوا أثرهم قويا على صفحة التاريخ الإسلامى ، فأخذ الأدب العربى فى عهد بنى أمية هذا الاتجاه الذى عيناه ولكنه على كل حال كان أدبا قويا ، يصور العزة العربية لابسة ثوب الإسلام ناعمة ببلاغة القرآن ، ولم يستتب الأمر لبنى أمية حتى انقسموا فى أمورهم الدنيوية وأصبح الأدب أداة لتسليتهم وتبرير سياستهم وتصرفاتهم الحزبية، ولكن كان فى هذا الوقت للخوارج أدب يمثل قوة عقيدتهم وقوة دفاعهم عن هذه العقيدة رغم انصباب بنى أمية عليهم ورغم القسوة التى عاملهم بها قواد بنى أمية ولاسيما الحجاج بن يوسف الثقفي وقد ستر أدب الخوارج القوى ضعف أدب الأمويين . فقد كنت تسمع لشاعر الخوارج أو قائدهم القطعة من الشعر التى تحمل من قوة الإيمان وقوة النزوع فى سبيل هذا الإيمان ما يجعلك تحس بسر البطولة والعبقرية وهاك هذه القطعة من هذا الأدب الخارجى

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع

وما حل العهد العباسى الفخم بسعة الملك وامتداد السلطان ووفرة الغنى وتلون الملاهى وتعدد اللذات حتى أصبح الأدب العربى أدب ضعف وخنوع ، وانقياد وخضوع ، أدب خلاعة وتهتك وفجور ، واستهتار وزندقة وإلحاد ، فأصبحت ترى قصائد المدح الذليل تساق للأمراء والعظماء ، ووصف النساء والغلمان والخمر يملأ مجالس الأدب، والمفاخرة بالزندقة والإلحاد والشعوبية تدور على الألسنة فى كل مكان .

بينما كان المجتمع العباسى حافلا بكل هذا كانت الحوادث تنسج لأركان لهذا الملك الضخم قدت فيه الفساد وامتدت أيدى النساء والمماليك والعبيد إلى صولجان الحكم فأخذوا يستعملونه أداة لإشباع شهواتهم وإرضاء رغباتهم ، فتزلزل الملك ثم انهدم . وأما الأدب فى هذه الأيام الضاحكة الباكية الحافلة باللذات واللاهى الاجتماعية ، المترعة بالآلام والمصائب السياسية والحربية ، فقد كان صورة قائمة لحياة هذا المجتمع القائم يورث النظار إليه الهم والألم لولا ومضات من نور القوة كانت تلمع فى سماء ذلك الأدب الحزين الباكى ثم تنطفئ ، وكان مصدر هذه الومضات نفوس متألمة مما حل بالعرب والإسلام من النكبات كنفس المتنبى الكبيرة الثائرة التى انفجرت بالشعر القوى المدوى المجلجل فى سماء الأدب ، ونفس أبى فراس الشاعر البطل الذى أبلى فى ميدان الشعر بلاءه فى ميدان الحرب. بينما هذا كان يقع فى الشرق كان ملك بنى أمية فى الغرب قويا قاهراً، والأدب فى ظله زاهياً زاهراً ، حتى عصف الدهر على الملك العربى الإسلامى فى الشرق والغرب ، فانقرض ولم يبق للسلطنة العربية صولة، ولا للأدب العربى دولة وأصبح العرب أشتاتاً فى كل أرض وأوزاعاً تحت كل سلطان ، وأما الأدب فانمسخ انمساخاً حتى أصبح همه علالات النفوس الضعيفة والعقول الفارغة من الجدل اللغوى العقيم، والنقاش البيانى الفارغ ، حتى جاء القرن التاسع عشر بما فيه من أحداث فبدأ الأدب العربى يتململ فى مرقده ويتماثل للنهوض من كبوته

محمد الحسينى

تظهر قريباً الطبعة الثامنة منقحة
من كتاب
آلام فرتر
للأستاذ أحمد حسن الزيات
وهى القصة العالمية الواقعية الرائعة الخالدة
للشاعر النيلسوف
« جوته » الألمانى .